ويقول أيضاً :

لَوْ أنَّ بيتَكَ يَا ابْنَ يوسف كُلَّه إبرٌ يَضِيقُ بِهاَ فَضَاءُ المنْزِلِ

وأتَاكَ يُوسُفُ يَستعيرُكَ إبْرةً لِيَخيطَ قدَّ قمِيصِهِ لَمْ تفْعَلِ[1]

فالإنسان يبخل على الناس ويُقتِّر علىَ نفسه ؛ لأنه جُبِل علىَ البخل مخافة الفقر ، وإنْ أُوتي خزائن السموات والأرض .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا (١٠١) ﴾

وقد سبق أن اقترح كفار مكة على رسول الله ﷺ عدة آيات ذُكِرَتْ في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ .. (٩٣) ﴾ [الإسراء]

فأراد الحق سبحانه أنْ يُلفت نظره أن سابقيهم من اليهود أتتهم تسع آيات ونزلت عليهم دون أنْ يطلبوها ، ومع ذلك كفروا ، فالمسألة كلها تعنّت وعناد من أهل الكفر في كل زمان ومكان .

ومعنى ﴿ بَيِّنَاتٍ .. (١٠١) ﴾ [الإسراء] أي : واضحات مشهورات بلْقاء

---

(١) البيت لابن الرومي أيضاً .

كالصبح ، لأنها حدثت جميعها على مَرْأىً ومشهد من الناس .

والمراد بالآيات التسع هنا هى الآيات الخاصة بفرعون ؛ لأن كثيرين يخلطون بين معجزات موسى إلى فرعون ، ومعجزاته إلى بنى إسرائيل .

إذن : فقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ .. (١٠١)﴾ [الإسراء] هى الآيات التى أُرسل بها إلى فرعون وقومه وهى : العصا التى انقلبتْ حية ، واليد التى أخرجها من جيبه بيضاء مُنورة ، وأَخْذ آل فرعون بالسنين ونَقْص من الأموال والأنفس والثمرات ، ثم لما كذَّبوا أنزل الله عليهم الطوفان ، والجراد ، والقُمّل[1] ، والضفادع ، والدم ، هذه تسع آيات خاصة بما دار بين موسى وفرعون .

أما المعجزات الأخرى مثل العصا التى ضرب بها الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ، ونتق[2] الجبل فوقهم كأنه ظُلَّة ، وإنزال المنِّ والسَّلْوى عليهم ، فهذه آيات خاصة ببنى إسرائيل .

وقوله تعالى : ﴿فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ .. (١٠١)﴾ [الإسراء] والأمر هنا لرسول الله ﷺ ، لكن كيف يسأل بنى إسرائيل الذين جاءهم موسى ـ عليه السلام ـ وقد ماتوا ، والموجود الآن ذريتهم ؟

نقول : لأن السؤال لذريتهم هو عَيْن سؤالهم ؛ لأنهم تناقلوا الأحداث جيلاً بعد جيل ؛ لذلك قال تعالى مُخاطباً بنى إسرائيل

---

(١) القُمّل : صغار الذر والدبى . وهو شىء صغير له جناح أحمر . قال ابن السكيت : القُمّل شىء يقع فى الزرع ليس بجراد فيأكل السنبلة وهى غضة قبل أن تخرج فيطول الزرع ولا سُنبل له . [لسان العرب ـ مادة : قمل] .

(٢) نتقه : رفعه من مكانه وحرّكه وجذبه . [القاموس القويم ٢/٢٥٢] .

المعاصرين لرسول الله : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ[1] سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [إبراهيم]

والنجاة لم تكُنْ لهؤلاء ، بل لأجدادهم المعاصرين لفرعون ، لكن خاطبهم الحق بقوله (أنجاكم) لأنه سبحانه لو أهلك أجدادهم لما وُجِدُوا هم ، فكأن نجاة السابقين نجاةٌ للاحقين .

ويسأل رسول الله بنى إسرائيل لأنهم هم الأمة التى لها ممارسة مع منهج الله ووحيه ، ولها اتصال بالرسل وبالكتب المنزَّلة كالتوراة والإنجيل ، أما مشركو قريش فليس لهم صلة سابقة بوَحْى السماء ؛ لذلك لما كذَّبوا رسول الله خاطبه بقوله : ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾﴾ [الرعد]

لأن الذى عنده عِلْم من الكتاب : اليهود أو النصارى عندهم عِلْم فى كتبهم وبشارة ببعثة محمد ، وهم يعرفونه ويعرفون أوصافه وزمن بعثته ، بل ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، بل وأكثر من معرفتهم لأبنائهم ، كما قال واحد منهم[2] .

وسؤال رسول الله لبنى إسرائيل سؤالَ حُجَّة واستشهاد ؛ لأن قومه سألوه وطلبوا أنْ يظهر لهم عدة آيات ـ سبق ذِكْرها ـ لكى يؤمنوا به ، فأراد أنْ يُنبِّههم إلى تاريخ إخوانهم وسابقيهم على مَرِّ

(١) يسومونكم : يذيقونكم أشد العذاب . قال الليث : السوم أن تُجشِّم إنساناً مشقة أو سوءاً أو ظلماً . [لسان العرب ـ مادة : سوم] .

(٢) هو عبد الله بن سلام . قال القرطبى : يُروى عن عمر أنه قال لعبد الله بن سلام : أتعرف محمداً كما تعرف ولدك ؟ قال : نعم وأكثر . نزل الأمين من السماء على الأمين فى الأرض بنعته فعرفته ، وإنى لا أدرى ما كان من أمه . [ذكره ابن كثير فى تفسيره ١/١٩٤] .

العصور ، وقد أنزل الله لهم الآيات الواضحات والمعجزات الباهرات ، ومع ذلك كفروا ولجُّوا ولم يؤمنوا . فقوم فرعون رأوْا من موسى تسع آيات وكفروا ، وقوم صالح : ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا.. (٥٩)﴾ [الإسراء] ولَيْتهم كذَّبوا وكفروا بهذه الآية فحَسْب ، بل اعتدَوْا عليها وعقروها .

لذلك قال تعالى : ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ .. (٥٩)﴾ [الإسراء] أى : التي اقترحوها ﴿إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ .. (٥٩)﴾ [الإسراء] وما دام كذَّب بها الأولون فسوف يُكذِّب بها هؤلاء ؛ لأن الكفر مِلَّة واحدة فى كل زمان ومكان .

إذن : مسألة طلب الآيات واقتراح المعجزات ليستْ فى الحقيقة رغبة فى الإيمان ، بل مجرد عناد ولَجَج ومحاولة للتعنُّت والجدَل العقيم لإضاعة الوقت .

ثم يقول تعالى : ﴿فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ (١٠١)﴾ [الإسراء] أى : بعد أنْ رأى الآيات كلها : ﴿إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُوراً (١٠١)﴾ [الإسراء] فاتهمه بالسحر بعد أنْ أراه كُلَّ هذه الدلائل والمعجزات .

وكلمة ﴿مَسْحُوراً (١٠١)﴾ [الإسراء] اسم مفعول بمعنى سحره غيره ، وقد يأتى اسم المفعول دالاً على اسم الفاعل لحكمة ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً (٤٥)﴾ [الإسراء]

والحجاب يكون ساتراً لا مستوراً ، لكن الحق سبحانه جعل الحجاب نفسه مستوراً مبالغة فى السَّتْر ، كما نبالغ نحن الآن فى استعمال الستائر ، فنجعلها من طبقتين مثلاً .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ظِلاًّ ظَلِيلاً ﴿٥٧﴾﴾ [النساء] فالظل نفسه مُظلَّل ، ونستطيع أن نلاحظ هذه الظاهرة إذا جلسنا في الحرِّ تحت شجرة ، فسوف نجد الهواء تحتها رَطْباً بارداً ، لماذا ؟ لأن أوراق الشجر مُتراكمة يُظلِّل بعضها بعضاً ، فتجد أعلاك طبقات متعددة من الظل ، فتشعر في النهاية بجو لطيف مُكيف تكييفاً ربانياً .

إذن : قوله (مسحوراً) تفيد أنه سحَرَ غيره ، أو سحره غيره ؛ لأن المسحور هو الذي ألَمَّ به السحر ، إما فاعلاً له ، أو مفعولاً عليه . وهذه الكلمة قالها كفار مكة لرسول الله ﷺ فقالوا : ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً ﴿٤٧﴾﴾ [الإسراء] والمسحور بمعنى المخبول الذي أثَّر فيه السحر ، فصار مخبولاً مجنوناً ، وهذا كذب وافتراء على رسول الله من السهل ردُّه ودَحْضه .

فإنْ كان ساحراً ، فكيف يسحره غيره ؟! ولماذا لم يسحركم كما سحر الذين آمنوا به ؟ لماذا تأبَّيتم أنتم على سحره فلم تؤمنوا ؟ وإنْ كان مسحوراً مَخْبُولاً ، والمخبول تتأتَّى منه حركات وأقوال دون أنْ تَمُرَّ على العقل الواعي الذي يختار بين البديلات ، فلا يكون له سيطرة على إراداته ولا على خُلقه ، فهل عهدكم بمحمد أنْ كان مَخبولاً ؟ هل رأيتم عليه مثل هذه الصفات ؟

لذلك رَدَّ الحق سبحانه عليهم هذا الافتراء بقوله تعالى : ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم]

والمجنون لا يكون على خُلُق أبداً .

وسوف يناقض فرعون نفسه ، فبعد أنْ اتهم موسى بالسحر ، ثم كانت الغَلَبة لموسى ، وخَرَّ السحرة ساجدين ، قال : ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ .. (٧١) ﴾ [طه] وهذا دليل على التخبُّط والإفلاس .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (١٠٢) ﴾

أى : قال موسى لفرعون ، والتاء فى (علمْتَ) مفتوحة أى : تاء الخطاب ، فهو يكلِّمه مباشرة ويُخاطبه : لقد علمتَ يا فرعون علْمَ اليقين أننى لستُ مسحوراً ولا مخبولاً ، وأن ما معى من الآيات مما شاهدتَه وعاينته من الله رب السموات والأرض ، وأنت تعلم ذلك جيداً إلا أنك تنكره ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا .. (١٤) ﴾ [النمل]

إذن : فعندهم يقينٌ بصدق هذه المعجزات ، ولكنهم يجحدونها ؛ لأنها ستزلزل سلطانهم ، وتُقوِّض عروشهم .

وقوله تعالى : ﴿ بَصَآئِرَ .. (١٠٢) ﴾ [الإسراء] أى : أنزل هذه الآيات بصائر تُبصِّر الناس ، وتفتح قلوبهم ، فيُقبلوا على ذلك الرسول الذى جاء بآية معجزة من جنس ما نبغَ فيه قومه .

ثم لم يَفُتْ موسى ـ عليه السلام ـ وقد ثبتتْ قدمه ، وأرسى قواعد دعوته أمام الجميع أنْ يُكلِّم فرعونَ من منطلق القوة ، وأن يُجابهه واحدة بواحدة ، فيقول : ﴿ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (١٠٢) ﴾ [الإسراء] فقد سبق أنْ قال فرعون : ﴿ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا (١٠١) ﴾ [الإسراء] فواحدة بواحدة ، والبادى أظلم .

والمثبور : الهالك ، أو الممنوع من كُلّ خير ، وكان الله تعالى أطْلعَ موسى على مصير فرعون ، وأنه هالكٌ عن قريب . وعلى هذا يكون المجنون على أية حال أحسن من المثبور ، فالمجنون وإنْ فقد نعمة العقل إلا أنه يعيش كغيره من العقلاء ، بل ربما أفضل منهم ، لأنك لو تأملتَ حال المجنون لوجدته يفعل ما يشاء ويقول ما يشاء دون أنْ يتعرّض له أحد أو يُحاسبه أحد ، وهذا مُنْتَهى ما يتمناه السلاطين والحكام وأهل الجبروت في الأرض ، فماذا ينتظر القادة والأمراء إلاَّ أنْ تكون كلمتهم نافذة ، وأمرهم مُطَاعاً ؟ وهذا كله ينعَم به المجنون .

وهنا قد يقول قائل : ما الحكمة من بقاء المجنون على قَيْد الحياة ، وقد سلبه الله أعظم ما يملك ، وهو العقل الذى يتميز به ؟

نقول : أنت لا تدرى أن الخالق سبحانه حينما سلبه العقل ماذا أعطاه ؟ لقد أعطاه ما لو عرفته أنت أيُّها العاقل لتمنيتَ أنْ تُجَنَّ !! ألاَ تراه يسير بين الناس ويفعل ما يحلو له دون أنْ يعترضه أحد ، أو يؤذيه أحد ، الجميع يعطف عليه ويبتسم فى وجهه ، ثم بعد ذلك لا يُحاسَب فى الآخرة ، فأىُّ عِزٍّ أعظم من هذا ؟

إذن : سَلْب أىّ نعمة مساوية لنعم الآخرين فيها عطاء لا يراه ولا يستنبطه إلا اللبيب ، فحين ترى الأعمى مثلاً فإياك أنْ تظنّ أنك أفضل منه عند الله ، لا ليس منّا مَنْ هو ابنٌ لله ، وليس منّا مَنْ بينه وبين الله نسب ، نحن أمام الخالق سبحانه سواء ، فهذا الذى حُرِم نعمة البصر عُوِّض عنها فى حواس أخرى ، يفوقك فيها ـ أنت أيها المبصر ـ بحيث تكون الكِفّة فى النهاية مُسْتوية .

واسمع إلى أحد العمْيان يقول :

عَمِيتُ جَنيناً والذكَاءُ مِنَ العَمَى ... فجئتُ عَجِيبَ الظَّنِّ للعِلْم مَوْئِلاً
وَغَابَ ضِيَاءُ العَيْنِ للقلْبِ رافِداً ... لِعلْمٍ إذا مَا ضيَّع الناسُ حَصَّلا[1]

فحدِّث عن ذكاء هؤلاء وفطْنتهم وقوة تحصيلهم للعلم ولا حرج ، وهذا أمر واضح يُشاهده كُلُّ مَنْ عاشر أعمى . وهكذا تجد كُلَّ أصحاب العاهات الذين ابتلاهم الخالق سبحانه بنقص في تكوينهم يُعوِّضهم عنه في شيء آخر عزاءً لهم عما فَاتهم ، لكن هذا التعويض غالباً ما يكون دقيقاً يحتاج إلى مَنْ يُدرِكه ويستنبطه .

وكذلك نرى كثيرين من هؤلاء الذين ابتلاهم الله بنقْصٍ ما يحاولون تعويضه ويتفوقون في نواحٍ أخرى ، ليثبتوا للمجتمع جدارتهم ويُحدِثوا توازناً في حياتهم ليعيشوا الحياة الكريمة الإيجابية في مجتمعهم .

ومن ذلك مثلاً العالم الألماني (شاخْت) وقد أصيب بقِصَرٍ في إحدى ساقيْه أعفاه من الخدمة العسكرية مع رفاقه من الشباب ، فأثَّر ذلك في نفسه فصمَّم أنْ يكون شيئاً ، وأنْ يخدُمَ بلده في ناحية أخرى ، فاختار مجال الاقتصاد ، وأبدع فيه ، ورسم لبلاده الخُطَّة

---

(١) هذان البيتان لبشار بن برد . وقد قيل له عندما أنشد قوله :

كَأَنَّ مَثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا ... وَأَسْيَافَنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهْ

ما قال أحد أحسن من هذا التشبيه ، فمن أين لك هذا ولم تر الدنيا قط ولا شيئاً فيها ؟ فقال : إن عدم النظر يُقوى ذكاء القلب ويقطع عنه الشغل بما ينظر إليه من الأشياء ، فيتوفر حِسّه وتذكو قريحته . ثم أنشدهم هذين البيتين . الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (٣٧٦/١) .

التى تعينها فى السِّلْم وتعويضها ما فاتها فى الحرب ، فكان (شاخْت) رجل الاقتصاد الأول فى ألمانيا كلها .

ويجب أن نعلم أن التكوين الإنسانى وخَلْق البشر ليس عملية ميكانيكية تعطى نماذج متماثلة تماماً ، إبداع الخالق سبحانه ليس ماكينة كالتى تصنع الأكواب مثلاً ، وتعطينا قطَعاً متساوية ، بل لا بُدَّ من الشذوذ فى الخَلْق لحكمة ؛ لأن وراء الخلق إرادة عليا للخالق سبحانه ، ألا ترى الأولاد من أب واحد وأم واحدة وتراهم مختلفين فى اللون أو الطول أو الذكاء .. الخ ؟!

يقول تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ .. (٢٢) ﴾ [الروم]

إنها قدرةٌ فى الخَلْق لا نهاية لها ، وإبداعٌ لا مثيلَ له فيما يفعل البشر .

وهناك ملْمح آخر يجب أن ننتبه إليه ، هو أن الخالق سبحانه وتعالى جعل أصحاب النقص فى التكوين وأصحاب العاهات كوسائل إيضاح ، وتذكُّر للإنسان إذا ما نسى فضْل الله عليه ، لأنه كما قال تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) ﴾ [العلق]

فالإنسان كثيراً ما تطغيه النعمة ، ويغفل عن المنعِم سبحانه ، فإذا ما رأى أصحاب الابتلاءات انتبه وتذكَّر نعمة الله ، وربما تجد المبصر لا يشعر بنعمة البصر ولا يذكرها إلا إذا رأى أعمى يتخبَّط فى الطريق ، ساعتها فقط يذكر نعمة البصر فيقول : الحمد لله .

إذن : هذه العاهات ليستْ لأن أصحابها أقلُّ منِّا ، أو أنهم أهونُ

على الله .. لا ، بل هي ابتلاء لأصحابها ، ووسيلة إيضاح للآخرين لتلفتهم إلى نعمة الله .

لكن الآفة في هذه المسألة أنْ ترى بعض أصحاب العاهات والابتلاءات لا يستر بَلْوَاه على ربه ، بل يُظهرها للناس ، وكأنه يقول لهم : انظروا ماذا فعل الله بي ، ويتخذ من عَجْزه وعاهته وسيلةً للتكسُّب والترزّق ، بل وابتزاز أموال الناس وأَخْذها دون وَجْه حق .

وفي الحديث الشريف : « إذَا بُلِيتم فاستتروا »[1] .

والذي يعرض بَلْواه على الناس هكذا كأنه يشكو الخالق للخَلْق ، ووالله لو ستر صاحب العاهة عاهته على ربه وقبلها منه لساقَ له رزقه على باب بيته . والأدْهَى من ذلك أن يتصنّع الناس العاهات ويدَّعوها ويُوهموا الناس بها ليُوقِعوهم ، وليبتزّوا أموالهم بسيف الضعف والحاجة .

نعود إلى قصة موسى وفرعون لنستنبط منها بعض الآيات والعجائب ، وأوّل ما يدعونا للعجب أن فرعون هو الذي ربَّى موسى منذ أنْ كان وليداً ، وفي وقت كان يقتل فيه الذكور من أبناء قومه ، لنعلم أن الله يحول بين المرء وقلبه ، وأن إرادته سبحانه نافذة . فقد وضع محبة موسى في قلب فرعون وزوجته فقالت :

﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا .. ⑨ ﴾ [القصص]

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء (٢١١) بلفظ : « إذا بليتم بالمعاصي فاستتروا » ، وقد أخرج الحاكم في مستدركه (٢٤٤/٤) من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قام بعد أن رجم الأسلمي فقال : « اجتنبوا هذه القاذورة التي نهى الله عنها ، فمن ألمَّ فليستتر بستر الله وليتب إلى الله ، فإنه مَنْ يُبْدِ لنا صَفْحته نُقم عليه كتاب الله » قال الحاكم : « صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه » .

فأين ذهبت عداوته وبُغْضه للأطفال ؟ ولماذا أحبَّ هذا الطفلَ بالذات ؟ ألم يكُنْ من البدهي أنْ يطرأ على ذِهْن فرعون أن هذا الطفل ألقاه أهله في اليَمِّ لينجو من القتل ؟ ولماذا لم تطرأ هذه الفكرة البدهية على ذهْنه ؟ اللهم إلا قوله تعالى : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. (٢٤)﴾ [الأنفال]

لقد طمس الله على قلب فرعون حتى لا يفعل شيئاً من هذا ، وحال بينه وبين قلبه ليُبيِّن للناس جهل هذا الطاغية ومدى حُمْقه ، وأن وراء العناية والتربية للأهل والأسرة عنايةُ المربِّى الأعلى سبحانه .

لذلك قال الشاعر :

إذَا لَمْ تُصَادِفْ مِنْ بَنِيكَ عِنَايةً ... فَقَدْ كذبَ الرَّاجِى وَخَابَ المؤمِّلُ
فمُوسَى الذِى رَبَّاهُ جِبْرِيلُ كافِرٌ ... وَمُوسَى الذِى رَبَّاهُ فِرْعَوْنُ مُرْسَلُ

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا (١٠٣) ﴾

(فَأَرَادَ) أى : فرعون . (أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ) كلمة « استفزّ » سبق الكلام عنها في قوله تعالى : ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ .. (٦٤)﴾ [الإسراء] فالاستفزاز هو الإزعاج بالصوت العالى ، يقوم المنَادَى ويخفّ من مكانه ، وهذا الصوت أو هذه الصَّيْحة يُخرجها الفارس أو اللاعب كما نرى في لعبة الكراتيه مثلاً ليُزعج الخصم ويُخيفه ، وأيضاً فإن هذه الصيحة تشغل الخَصْم ، وتأخذ

جزءاً من تفكيره ، فيقِلّ تركيزه ، فيمكن التغلُّب عليه . ومن الاستفزاز قَوْل أحدِنا لابنه المتكاسل : فِزْ . أي : انهض وخِفّ للقيام .

إذن : المعنى : فأراد فرعون أنْ يستفزّهم ويخدعهم خديعة تُخرِجهم من الأرض ، فتخلو له من بعدهم ، وهذا دليلٌ على غباء فرعون وتغفيله وحماقته ، فما جاء موسى إلا ليأخذ بني إسرائيل ، كما جاء في قوله تعالى :

﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧) ﴾ [الشعراء]

فكأن غباء فرعون أعان القدر الذي جاء به موسى ـ عليه السلام ـ ولكن كان لله تعالى إرادة فوق إرادة فرعون ، فقد أراد أن يُخرج بني إسرائيل وتخلو له الأرض ، وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يستفزّه هو من الأرض كلها ومن الدنيا ، فأغرقه الله تعالى وأخذه أخْذَ عزيز مقتدر ، وعاجله قبل أنْ يُنفذ ما أراد .

كما يقولون في الأمثال عند أهل الريف للذي هدَّد جاره بأنْ يحرق غلّته وهي في الجرن ، فإذا بالقدر يعاجله (والغلة لسه فريك) أي : يعاجله الموت قبل نُضْج الغلة التي هدد بحرقها ، فأغرقه الله ومَنْ معه جميعاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُواْ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (١٠٤) ﴾

قوله تعالى : (مِنْ بَعْدِهِ) أى : من بعد موسى (اسْكُنُوا الأَرْضَ) أغلب العلماء[1] قالوا : أى الأرض المقدسة التى هى بيت المقدس ، التى قال تعالى عنها : ﴿ يَـٰقَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ[2] الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [المائدة] فكان ردّهم على أمر موسى بدخول بيت المقدس : ﴿ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ[3] وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [المائدة]

وقالوا : ﴿ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [المائدة]

لكن كلمة (الارض) هنا جاءت مجرّدة عن الوَصْف (اسْكُنُوا الأَرْضَ) دون أنْ يُقيِّدها بوصف ، كما نقول : أرض الحرم ، أرض المدينة ، وإذا أردتَ أنْ تُسكنَ إنساناً وتُوطِّنه تقول : اسكن أى : استقر وتوطّن فى القاهرة أو الأسكندرية مثلاً ، لكن اسكن الأرض ،

---

(١) قال القرطبى فىْ تفسيره (٥/٤٠٦٧) : « أى أرض الشام ومصر » .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٢/٣٧) : « قال ابن عباس : هى الطور وما حوله . وكذا قال مجاهد وغير واحد . وعن ابن عباس أيضاً قال : هى أريحاء وكذا ذكر عن غير واحد من المفسرين ، وفى هذا نظر لأن أريحاء ليست هى المقصودة بالفتح ولا كانت فى طريقهم إلى بيت المقدس ، إلا أن يكون المراد بأريحاء أرض بيت المقدس كما قاله السدى فيما رواه ابن جرير عنه ، لا أن المراد بها هذه البلدة المعروفة فى طرف الطور شرقى بيت المقدس » .

(٣) ذكر كثير من المفسرين ههنا أخباراً من وضع بنى إسرائيل فى عظمة خلق هؤلاء الجبارين ، وأن منهم عوج بن عنق بنت آدم عليه السلام ، وأنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمائة وثلاثة وثلاثون ذراعاً وثلث ذراع ، وهذا شىء يستحى من ذكره ، ثم هو مخالف لما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعاً ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن » قاله ابن كثير فى تفسيره (٢/٣٨) .

كيف وأنا موجود في الأرض بالفعل ؟! لا بُدَّ أن تُخصِّص لي مكاناً أسكن فيه .

نقول : جاء قوله تعالى (اسكُنُوا الأرْضَ) هكذا دون تقييد بمكان معين ، لينسجم مع آيات القرآن التي حكمتْ عليهم بالتفرُّق في جميع أنحاء الأرض ، فلا يكون لهم وطن يتجمعون فيه ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا .. (١٦٨) ﴾ [الأعراف]

والواقع يُؤيد هذا ، حيث نراهم مُتفرِّقين في شتَّى البلاد ، إلا أنهم ينحازون إلى أماكن مُحدَّدة لهم يتجمَّعون فيها ، ولا يذوبون في الشعوب الأخرى ، فتجد كل قطعة منهم كأنها أمة مُستقلة بذاتها لا تختلط بغيرها .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (١٠٤) ﴾[الإسراء]

والمراد بوَعْد الآخرة : هو الإفساد الثاني لبني إسرائيل ، حيث قال تعالى عن إفسادهم الأول على عهد رسول الله ﷺ :

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً (٥) ﴾ [الإسراء]

فقد جاس رسول الله ﷺ خلال ديارهم في المدينة ، وفي بني قريظة وبني قَيْنُقاع ، وبني النضير ، وأجلاهم إلى أذْرُعَات بالشام ، ثم انقطعت الصلة بين المسلمين واليهود فترة من الزمن .

ثم يقول تعالى عن الإفسادة الثانية لبني إسرائيل : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا[1] مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (٧) ﴾ [الإسراء]

---

(١) تبَّره : دمره وأهلكه . مُتَبَّر : اسم مفعول أي مُدمَّر مُهلَك . [القاموس القويم ١/ ٩٧] .

وهذه الإفسادة هى ما نحن بصدده الآن ، حيث سيتجمع اليهود فى وطن واحد ليتحقق وَعْد الله بالقضاء عليهم ، وهل يستطيع المسلمون أن ينقضُّوا على اليهود وهم فى شتيت الأرض ؟ لا بُدَّ أن الحق سبحانه أوحى إليهم بفكرة التجمُّع فى وطن قومى لهم كما يقولون ، حتى إذا أراد أَخْذهم لم يُفلتوا ، ويأخذهم أَخْذ عزيز مقتدر .

وهذا هو المراد من قوله تعالى : ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (١٠٤)﴾ [الإسراء] أى : مجتمعين بعضكم إلى بعض من شَتَّى البلاد ، وهو ما يحدث الآن على أرض فلسطين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (١٠٥)﴾

قوله تعالى : ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ .. (١٠٥)﴾ [الإسراء]

الحق من حقَّ الشىء . أى : ثبت ، فالحقّ هو الشىء الثابت الذى لا يطرأ عليه التغيير أبداً ، أما الباطل فهو مُتغير مُتلوِّن لأنه زَهُوق ، والباطل له ألوان متعددة ، والحق ليس له إلا لون واحد .

لذلك لما ضرب الله لنا مثلاً للحق والباطل ، قال سبحانه : ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧)﴾ [الرعد]

فإنْ رأيت فى عَصْر من العصور خَوَراً يصيب أهل الحق ، وعلُواً يحالف أهل الباطل فلا تغتر به ، فهو علُوّ الزَّبَد الذى يعلو صفحة

الماء ، ولا ينتفع الناس به ، وسرعان ما تُلقي به الريح هنا وهناك لتجلوَ صفحة الماء الناصعة المفيدة ، أما الزَّبَد فيذهب جُفَاءً دون فائدة ، ويمكث فى الأرض الماء الصافى الذى ينتفع الناس به فى الزراعة ونحوها .

وهكذا الباطل مُتغيِّر مُتقلِّب لا ينتفع به ، والحق ثابت لا يتغير لأنه مَظْهرية من مَظْهريات الحق الأعلى سبحانه ، وهو سبحانه الحق الأعلى الذى لا تتناوله الأغيار .

وقوله : ﴿أَنزَلْنَاهُ .. (١٠٥)﴾ [الإسراء]

ونلاحظ هنا أن ضمير الغائب فى ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ لم يتقدَّم عليه شىء يوُضِّح الضمير ويعود إليه ، صحيح أن الضمير أعْرفُ المعارف ، لكن لا بُدَّ له من مرجع يرجع إليه . وهنا لم يُسبِق الضمير بشىء ، كما سُبِق بمرجعٍ فى قوله تعالى : ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ .. (٨٨)﴾ [الإسراء]

فهنا يعود الضمير فى (بِمِثْلِهِ) إلى القرآن الذى سبق ذكره .

نقول : إذا لم يسبق ضمير الغائب بشىء يرجع إليه ، فلا بُدَّ أن يكون مرجعه مُتعيِّناً لا يختلف فيه اثنانِ ، كما فى قوله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١)﴾ [الإخلاص]

فهو ضمير للغائب لم يسبق بمرجع له ؛ لأنه لا يرجع إلا إلى الله تعالى ، وهذا أمر لا يُختَلفُ عليه .

كذلك فى قوله تعالى : ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ .. (١٠٥)﴾ [الإسراء]

أى : القرآن ؛ لأنه شىء ثابت مُتعيِّن لا يُختلف عليه . وجاء الفعل أنزل للتعدية ، فكأن الحق سبحانه كان كلامه ـ وهو القرآن ـ محفوظاً فى اللوح المحفوظ ، إلى أنْ يأتىَ زمان مباشرة القرآن لمهمته ،

فأنزله الله جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ① ﴾ [القدر]

وهذا هو المراد من قوله (أَنْزَلْنَاهُ) ثم نُنزِّله مُنَجَّماً حَسْب الأحداث في ثلاث وعشرين سنة مُدَّة الدعوة كلها ، فكلما حدث شيء نزل القسط أو النجم الذي يعالج هذه الحالة .

و ﴿ أَنزَلْنَاهُ .. ⑩⑤ ﴾ [الإسراء] أي : نحن ، فالمراد الحق سبحانه وتعالى هو الذي حفظه في اللوح المحفوظ ، وهو الذي أنزله ، وأنزله على الأمين من الملائكة الذي اصطفاه لهذه المهمة .

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ①⑨③ ﴾ [الشعراء] أي : جبريل - عليه السلام - الذي كرَّمه الله وجعله روحاً ، كما جعل القرآن روحاً في قوله : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا .. ⑤② ﴾ [الشورى]

وقال عنه أيضاً : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ①⑨ ﴾ [التكوير]

والكريم لا يكتم شيئاً مما أوحى إليه ﴿ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ②⓪ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ②① ﴾ [التكوير]

هذه صفات جبريل الذي نزل بالوحي من الحق سبحانه ، ثم أوصله لمن ؟ أوصله للمصطفى الأمين من البشر : ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ②② وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ ②③ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ②④ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ②⑤ ﴾ [التكوير]

إذن : فالقرآن الذي بين أيدينا هو هو الذي نزل من اللوح المحفوظ ، وهو الحق الثابت الذي لا شكَّ فيه ، والذي لم يتغيَّر منه حرفٌ واحدٌ ، ولن يجد فيه أحد ثُغْرة للاتهام إلى أنْ تقومَ الساعة .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ .. (١٠٥) ﴾ [الإسراء] الأولى كانت : ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ .. (١٠٥) ﴾ [الإسراء]

أى : الوسائل التى نزل بها كلها ثابتة ، وكلها حَقٌّ لا رَيْبَ فيه ولا شكٌّ ﴿ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ (١٠٥) ﴾ [الإسراء] أى : مضمونه ، وما جاء به القرآن هو أيضاً حقٌّ ثابت ؛ لأن القرآن نزل معجزة ، ونزل كتاب منهجٍ ، معجزة حق لأنه تحدَّى الفُصَحاء والبلغاء وأهل اللغة ، فأعجزهم فى كل مراحل التحدى ، والقرآن يحتوى على منهج حق .

وأول شيء فى منهج القرآن أنَّه تكلّم عن العقائد التى هى الأصلُ الأصيل لكل دين ، فقبل أنْ أقول لك : قال الله ، وأَمَر الله لابُدَّ أن تعرف أولاً مَنْ هو الله ، ومَن الرسول الذى بلَّغ عن الله ، فالعقائد هى ينبوع السُّلوكيات .

إذن : تعرَّض القرآن للإلهيات ، وأوضح أن الله تعالى إله واحد له صفات الكمال المطلق ، وتعرَّض للملائكة وللنبوات والمعجزات والمعاد واليوم الآخر ، كُلٌّ هذا فى العقائد ؛ لأن الإسلام حرصَ أولاً على تربية العقيدة ، فكانت الدعوة فى مكة تُركّز على هذا الجانب دون غيره من جوانب الدين ليُربّىَ فى المسلمين هذا الأصل الأصيل ، وهو الاستسلام لله ، وإلقاء الزمام إليه سبحانه وتعالى .

والإنسان لا يُلقى زمام حركته إلا لمَنْ يثق به ، فلا بُدَّ إذنْ من معرفة الله تعالى ، ثم الإيمان به تعالى ، ثم التصديق للمبلّغ عن الله .

وفى القرآن أيضاً أحكامٌ وشرائع ثابتة لا تتغير ، ولن تُنسَخ بشريعة أخرى ؛ لأنها الشريعة الخاتمة ، كما قال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً .. (٣) ﴾ [المائدة]

إذن : نزل القرآن بما هو حَقٌّ من : إلهيات وملائكة ونبوات ومعجزات وأحكام وشرائع ، كلها حَقٌّ ثابت لا شكَّ فيه ، فنزل الحق الثابت من الله بواسطة مَن اصطفاه من الملائكة وهو جبريل على مَن اصطفاه من الناس وهو محمد ، وفى طى ما نزل الحق الثابت الذى لا يتغير .

وصدق الحق سبحانه حين قال : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ⑨﴾ [الحجر]

ونسوق هنا دليلاً عصرياً على أن كتاب الله جاء بالحق الثابت الذى لا يتغير على مَرِّ العصور ، ففى ألمانيا استحدث أحد رجال القانون قانوناً للتعسف فى استعمال الحق ، وظنّوا أنهم جاءوا بجديد ، واكتشفوا سلاحاً جديداً للقانون ليعاقب مَنْ له حَقّ ويتعسّف فى استعمال حقه .

ثم سافر إلى هناك محام من بنى سويف للدراسة ، فقرأ عن القانون الجديد الذى ادعَوْا السبق إليه ، فأخبرهم أن هذا القانون الذى تدَّعُونه لأنفسكم قانون إسلامى ثابت وموجود فى سُنّة رسول الله ، فعمدوا إلى كتب السيرة ، فوجدوا قصة الرجل الذى شكا إلى رسول الله ﷺ أن رجلاً له نخلة يمتلكها داخل بيته ، أو أنها تميل فى بيته ، فأخذها ذريعة وجعل منها مسمار جحا ، وأخذ يقتحم على صاحب البيت بيته بحجة أنه يباشر نخلته ، فماذا كان حكم الرسول فى هذه المسألة ؟

هذا الرجل له حَقٌّ فى النخلة ، فهى ملْكٌ له لكنه تعسَّف فى استعمال حقه ، وأتى بما لا يليق من المعاملة ، فالمفروض ألاَّ يذهب إلى نخلته إلا لحاجة ، مثل : تقليمها ، أو تلقيحها ، أو جمع ثمارها .

لقد أحضر رسول الله ﷺ الرجل وقال له : « إما أن تهبَ له هذه النخلة ، وإما أنْ تبيعها له ، وإما قطعناها » .

أليس ذلك من الحق الذى سبق به الإسلام ؟ وأليس دليلاً على استيعاب شرع الله لكل كبيرة وصغيرة فى حياة الناس ؟

أضِفْ إلى ذلك ما قاله بعض العلماء من أهل الإشراقات فى معنى : (وَبِالْحَقِّ نَزَلَ) أى : وعلى الحق الذى هو رسول الله ﷺ نزل القرآن كما تقول : ذهبت إلى القاهرة ونزلت بفلان . أى : نزلت عنده أو عليه .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (١٠٥) ﴾ [الإسراء]

والبشارة تكون بالخير ، والنذارة تكون بالشر ، ويُشترط فى التبشير والإنذار أن تُعطَى للمبشَّر أو للمُنْذَر فرصة يراجع فيها نفسه ، ويُعدِّل من سلوكه ، وإلا فلا فائدة . ولا جدوى منهما ، فتُبشِّر بالجنة وتُنذِر بالنار فى مُتَّسَع من الوقت ليتمكن هذا من العمل للجنة ، ويتمكن هذا من الإقلاع عن سبيل النار .

ومثال ذلك : أنك تُبشِّر ولدك بالنجاح والمستقبل الباهر إن اجتهد ، وتحذره من الفشل إن أهمل ، وهذا بالطبع لا يكون ليلة الامتحان ، بل فى مُتَّسَع أمامه من الوقت لينفذ ما تريد .

والحق سبحانه وتعالى هنا يخبر رسوله ﷺ بحقيقة مهمته كرسول عليه البلاغ بالبشارة والنذارة ، فلا يُحمِّل نفسه فوق طاقتها ؛ لأنه ليس مُلْزَمًا بإيمان القوم ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) ﴾ [الكهف]

أى : مُهلكها حُزْناً على عدم إيمانهم ، وفى آية أخرى قال :
﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ③ ﴾ [الشعراء]

فكأنه سبحانه يُخفِّف العِبْءَ عن رسوله ، ويدعوه ألاَّ يُتعِب نفسه فى دعوتهم ، فما عليه إلا البلاغ ، وعلى الله تبارك وتعالى الهداية للإيمان .

لكن حِرْص رسول الله على هداية قومه نابع من قضية تحكمه وتستولى عليه لخَّصها فى قوله : « والله لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[1] .

فالنبى ﷺ كامل الإيمان ، ويحب لقومه أن يكونوا كذلك ، حتى أعداؤه الذين وقفوا فى وجه دعوته كان إلى آخر لحظة فى الصراع يرجو لهم الإيمان والنجاة ؛ لذلك لما مُكِّن منهم لم يعاجلهم بالعقوبة ، بل قال : « بل أرجو أن يُخرِج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ، لا يُشرك به شيئاً »[2] .

وفعلاً صدق الله ورسوله ، وجاء من ذريات هؤلاء مَنْ حملوا راية

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣) ، ومسلم فى صحيحه (٤٥) كتاب الإيمان ، عن أنس بن مالك بلفظ : « والذى نفسى بيده ، لا يؤمن عبد حتى يحب لجاره ـ أو قال : لأخيه ـ ما يحب لنفسه » .

(٢) أخرج البخارى فى صحيحه (٣٢٣١ ، ٧٣٨٩) من حديث عائشة رضى الله عنها أن جبريل عليه السلام قال لرسول الله ﷺ : إن الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك ، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فنادانى ملك الجبال فسلم علىّ ثم قال : يا محمد إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ، فقال النبى ﷺ : « بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً » .